

الاصالة في الطب العربي

الدكتور فيصل دهبوب

— عضو المجمع العلمي العربي بدمشق —

تدرج الطب منذ نشأته الاولى فمر على ادوار ، وقد مثل الطب اليوناني دور « الخبرة الفلسفية المنظمة » ، وكان ابقراط الممثل الحقيقي لهذا الدور فوضع أسس هذه الخبرة ثم فرع عليها جالينوس ثم طبقها الرازي في الطب العربي وبلغ ابن سينا بالخبرة الفلسفية المنظمة الذروة في « قانونه » .

ذكرت جملة « كليات الطب اليوناني » فما هي هذه الكليات التي شككت بأن الطب العربي قد ثار عليها ؟

ان كليات الطب اليوناني تتلخص بنظريات العناصر والطبائع والاختلاط والامزجة وما يتفرع عنها .

وان جذور هذه النظريات تمتد الى « أنباد وقليس » ٤٩٣ — ٤٣٣ الذي ذكر ان الصحة تابعة للتوازن ، والمرض تابع لعدم التوازن في العناصر الاربعة وقد سماها Rhizomata وهي : النار والهواء والماء والتراب ، التي منها تتألف الاجساد البشرية (وكل شيء سواها) . وقد اطلق افلاطون على هذه العناصر الاربعة لفظ Stoicheia (الاسطقسات) ومنه جاءت كلمة Stochiometry أى (علم مبادئ المركبات العنصرية) ، وهناك من سمي بالعربية العناصر الاربعة « الاركان الاربعة » .

وقد اعقب نظرية العناصر الاربعة نظرية الطبائع الاربعة Dynamics ومنها لفظ Dinamidia وهو لفظ بقي شائعا في اليونانية واللاتينية زمنا طويلا والطبائع الاربعة هي : اليبوسة والرطوبة والحرارة والبرودة ، وأرى وجوب القول بأن اللفظ Dinamics الانكليزي مشتق من اللفظ اللاتيني اليوناني .

ثم استتبع نظرية العناصر الاربعة بنظرية الاختلاط الاربعة Chymon وهي البلغم

والدم والمرارة السوداء والمرارة الصفراء .

ان اول شرح لنظرية الاخلاط والطباع والعناصر يقع في رسالة « طبيعة الانسان » لابقراط تلك التي نسبها ارسطو الى « بوليبيوس » ومما يدعو الى الاستغراب ان نظرية الاخلاط هذه لم يرد شرحها في رسالة « الاخلاط الابقراطية » Peri Chymon .

مهما يكن فقد استكمل هذا الهرم من الرباعيات بنظرية الأمزجة الاربعة Crasls التي شرحت لأول مرة على يد جالينوس « النصف الثاني في القرن الثاني » وهي : المزاج البلغمي والدموي والصفراوي والسوداوي . وقد استمرت النظرية الاساسية في التعليم الطبي الجاليني حتى القرن التاسع عشر ولا تزال تذكر الى اليوم خارج نطاق الطب — على الاقل — كما يشهد بذلك كثير من التعابير في معظم لغات العالم ، وحتى في الطب فان نظرية الأمزجة قد تكون ذات اتصال بالناموس العام الذي قرره هنري لوشاتليه Henri Le Chatelier (١٨٥٠ — ١٩٣٦ م) حيث قرر عام (١٨٧٧ م) أن الاتزان في جهاز ما في جسم الانسان اذا ازاحه من مكانه ضغط عارض فان انحرافه يميل معه الى ازالة ذلك التوازن . وقد تكون — نظرية الامزجة — ذات صلة بنظرية تساند الغدد الصم ، وبكيفية حدوث المناعة والاصابة بالسل كذلك .

ان نظرية الامزجة تقول بأن العناصر الاربعة والطباع الاربعة والاخلاط الاربعة موجودة في كل جسم والعافية تستتبع قيام توازن بينها من جهة وفي كل واحدة منها على انفراد من جهة أخرى .

وكان ابقراط يعتبر الجسم الانساني كلا متماسكا ويعمل كوحدة وله علاقة تجاوب وانسجام مع البيئة ، فهناك توازن في طبيعة الانسان Human Mature أو « الفيسس » Physis ، (وهذا اللفظ جذر للفظ فسيولوجي Physiology أى توازن بين أخلاط الجسم الانساني من جهة وتوازن بين الجسم المتوازن في ذاته والبيئة من جهة أخرى . فاذا اختل توازن الاخلاط داخل الجسم حدث المرض ، واذا اختل التوازن بين « الفيسس » اى طبيعة الانسان والبيئة حدث المرض كذلك ، بمعنى ان الجسم الانساني يحمل بين طياته استعدادا طبيعيا للشفاء ، وهذا الاستعداد يتم حين يستجيب الجسم الى البيئة بفضل عملية الهضم التي سموها Pepsis ، والتي هي نوع من نضج بالتخلص كل تغيير يحدث في من الفضلات . وأدخل ابقراط عاملا ثالثا في احداث الامراض هو الاعتياد على عادات سيئة تضر بالصحة ، وهذا العامل وظيفي كما هو معلوم .

لقد ذكر جالينوس عن منافذ الاخلاط التي بها يتخلص الجسم من الزيادة الطارئة في كل خلط فقال : ان مخارج الدم هي الأنف والفم والحيض ، وان مخارج البلغم الانف ومخارج الصفراء كيس الصفراء ، والسوداء مخارجها الطحال والمعدة . .

لقد أيد جالينوس أبقرات في قوله بأن التخلص من الاخلاط الزائدة عند حدوث المرض يكون في الأيام البحرانية Critical بالقيء والاسهال اوالتف أوالعرق او باجتماع بعضها اوها جميعا ، والاسباب الموجبة لذلك فعل طبيعة الانسان الشافية ، وأن علم العلاج أمر اقرب الى تنظيم الغذاء منه الى وصف العقاقير .

لقد بنى أبقرات تعاليمه الطبية على أساس الاعتماد على القوة الطبيعية للشفاء Vis Medicatrix Naturae وبالتعبير الحديث ان العافية حالة من التوازن والعلّة تصدع في ذلك التوازن ، وحيث لا يكون التصدع بالغاً عاد التوازن من تلقاء نفسه . لذا أوجب توفير الراحة الجسدية والنفسية ليتسنى للطبيعة تحقيق قوتها الشفائية باعادة التوازن . فوجب الطبيب رعاية المريض كي يعين الطبيعة في عملها . والضمان الوافي للعافية في كليات الطب اليوناني هو التدبير الجامع بين غذاء معتدل ورياضة موافقة وأفضلها المشي لمن يكثّر الجلوس ، وهذا مانجده في كتاب التدبير Rigimen في فصليه الثالث والرابع وتجده كذلك متفرقا في مصنفات أبقراتية اخرى .

ان كليات الطب اليوناني هي وليدة نظرية «فيتاغورس» ، (٥٨٠ - ٤٩٧ ق. م) الخاصة بالرقم (٤) الذي اعتبره رقما متكاملا ، وذلك من تأثيرات بابلية في اعطاء قيمة لبعض الارقام كالرقم ٧ ، ١٢ ، ٦٠ ، ٣٦٠ ، ومن تأثيرات فلسفية مصرية قديمة في العناصر اى الاركان ، وهذا وهناك فكرة بوذية عن العناصر وفكرة صينية عن Yang , Yin .

أثر كليات الطب اليوناني في الطب العربي :

مهما يكن من شيء فإن هذه النظريات تمثل في حقيقة الأمر الرغبة الملحة في تحقيق التناسق الذي أرشد رجال العلم احيانا واضلهم احيانا في العالم أجمع (١) .

(١) ان مراجع ماتقدم من البحث هي :

١ - تاريخ العلم لجورج سارتون -/ الترجمة العربية - ج ١٢ / ص ٢٢٨ و ص ٢٢٩ و ص ٢٣٠ و ص

٢٣٥ و ص ٢٤٧ و ص ٢٤٨ و ص ٢٥٠ و ص ٢٩٢ .

٢ - عدد خاص للجمعية المصرية لتاريخ العلوم / العدد الثالث / ص ٤٢ .

٣ - ابن النفيس للدكتور يول غليموجي / سلسلة التراث العربي في الكويت / ، ص ٥٣ - ص ٦٣ .

يقول الدكتور براون في كتابه « الطب العربي » : « ان الاسس التي بني عليها الطب العربي نجدها في الكتب والمؤلفات الكبيرة حيث ابتداء مؤلفوها بفصول عن الطبائع والاخلاط والأمزجة » (٢).

ويقول الدكتور التجاني الماحي في كتابه مقدمة في تاريخ الطب : « كانت نظرية الاخلاط الاربعة هي النظرية السائدة ، على ضوءها باتوا يعللون وظائف الجسم ونشوء المرض فيه ، ولم يستطيع العرب ان يحسنوا معرفتهم في هذين العلمين اوان يأتوا بجديد فيهما (٣) » .

ان مقاله براون من ان الطب العربي شيد على أسس من الطبائع والاخلاط والأمزجة ، ومقاله التجاني الماحي من ان نظرية الاخلاط الاربعة كانت هي النظرية السائدة بين اطباء العرب ، على ضوءها باتوا يعللون وظائف الجسم ونشوء المرض فيه ، أقول ان في قول براون وقول التجاني الشيء الكثير من الصحة ، فقد سار اطباء العرب الكبار كالرازي وابن سينا وغيرهما على هذا النهج الذي اختطه فلاسفة اليونان واطباؤهم . ففي ارجوزة ابن سينا الطبية نجد بعض الأبيات في الاخلاط ومايتعلق بها ، منها هذان البيتان في العناصر أى الاركان (٤) :

أما الطبيعيات فالأركان	تقوم من مزاجها الأبدان
وقول بقراط بها صحيح	ماء ونار وثــــرى وريح
وهذان البيتان في الاخلاط : —	

الجسم مخلوق من الامشاج	مختلفات اللون والمزاج
من بلغم ومرة صفراء	ومن دم ومرة سوداء

ولكن لي اعتراض على التجاني في قوله « ولم يستطيع العرب أن يحسنوا معرفتهم في هذين العلمين — ويعني بهما ، الفزيولوجيا Phásiology وعلم الامراض Pathology — ولم يأتوا بجديد فيهما » ذلك لان رأيه في نظرى غير مقبل ، واقامة الحجة عليه لدحضه من الضرورة بمكان .

(٢) الطب العربي تأليف الدكتور براون ترجمة الدكتور داود سلمان ص ١١٢

(٣) مقدمة في تاريخ الطب تأليف الدكتور التجاني الماحي / ص ١٤٢

(٤) انظر Poeme De La Medecine, Textearabe Etc Fd Jahier, H. Nov Beddine Paris 1956 .

وأن اطباء العرب لم يتقيدوا بنظريات اليونان تماما بل قبلوا منها ما قبله العقل وأيدته التجربة ، مرفضوا ما رفضه المنطق ولم تؤيده التجربة اسمع ما قاله ابن رشد في هذا الخصوص : « علينا أن ننظر مآلاته الامم السابقة وما أثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا وعذرناهم ، وعلينا أن نستعين بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك وسواء أكان هذا التعبير مشاركا لنا في الملة أو غير مشارك ، اذا كان فيها شروط الصحة » (٥)

لقد رسم ابن رشد - وهو فيلسوف وطبيب - لنفسه لمن أتى بعده هذا النهج السليم في تعامله مع نظريات من تقدمه من أمم فخطا خطوات في طريق البحث العلمي وبخاصة في قوله : « فما كان موافقا للحق قبلناه وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه » .

مهما يكن من أمر فإنه يجب ان نبوب الطب العربي فنقسمه الى دورين ، دور مقدمة الثورة على كليات الطب اليوناني ودور الثورة نفسها على هذه الكليات .

أ - دور مقدمة الثورة على كليات الطب اليوناني :

أن اول ثائر على كليات الطب عند اليونان اى على القول في العناصر والطبائع والاخلاط والأ مزجة وما يتعلق بها هو الرازى .

اسمع ما قاله عن الجدرى في رسالته (في الجدرى والحصبة ثم احكم . قال الرازى : « فلنبتدى الان بذكر الفاعل لهذا الداء . ولم لا يكاد يفلت منه ولا واحد من الناس ، ثم في ما يتلو ذلك فصلا فصلا (٦) »

الى ان ما تقول « ومن اجل ذلك يشبه دماء الصبيان والاطفال العصارات التي يبتدى فيها الطبخ المؤدى الى النضج التام ، ولم تبلغ فيها الحركة الى الغليان وتشبه دماء الشبان ما قد غلي ونش من العصارات وانفشت عنه كثرة الابخرة وفضولها كالشراب الذى قد انفشت عنه قوته وقرب أن يبرد ويصير خلا » (٧) .

(٥) « لمحات من التراث الطبي العربي للدكتور مرسى محمد عرب / ص ٥١ / الاسكندرية ١٩٧٥ » .

(٦) كتاب في الجدرى والحصبة للرازى / تحقيق ونشر فاندريك / ١٨٧٢ م / ص ١٢ / بيروت الكلية السورية الانجيلية .

(٧) نفس المصدر من ص ١٣ - ص ١٤

وقال كذلك : « ويكون الجدرى عند عفونة الدم وغليانه ، لتنفس عنه فصول
الابخرة وينقلب من دم الطفولية المشبه العصارات الرطبة الى دم الشباب المشبه الشراب
التصيح . ويشبه الجسدري نفسه بالغليان والنشيش الحادئين في العصارات في ذلك
الوقت (٨) » .

لاشك أنه قد تبين لنا مما سبق من اقوال الرازي أنه عرف سبب الجدرى وخاصة قوله
« ويكون الجدرى عند عفونة الدم وغليانه » . وقوله وينقلب الدم من دم الطفولة المشبه
العصارات الرطبة الى دم الشباب المشبه الشراب النضج ، ذلك لأن انقلاب العصارات الرطبة
الى شراب نضج - حسب تشبيهه - لا يتم الا بالتخمير ، أى بواسطة الخمائر ، والخمائر
من الباكترىا ، فالرازي أول من قال بالجراثيم Bacteria في احداث مرض الجدرى
في الانسان .

فبالقياس على ماسبق أقول اذا اعتبر أبقرط أبا الطب، فالرازي أبو علم الامراض ،
اذا الرازي على هذا الأسس أول ثائر على كليات اليونان الطبية .

نعم ثار الرازي على نظريات جالينوس وأبقراط ولكن لم يعلن ثورته بل بقي
اتباعياً (كلاسيكياً) (في الظاهر على الأقل) ، وفي هذا المجال بشكل خاص حيث ذكر
لي الدكتور ألبير اسكندر أن للرازي رسالة لم تنشر بعد وهي : « في الشكوك على
جالينوس » - وعنوان الكتاب يدل على أنه ثورة على تفكير جالينوس في الطب وعلى
نظرياته الطبية .

والان أود ان أسأل هذا السؤال فأقول : ترى ماهو السبب في هذا التقديس أو الاحترام
لما قاله جالينوس أوأبقراط في نظر الرازي وابن سينا وغيرهم من اطباء العرب ؟ .

اجيبه فأقول : لعل مرجع ذلك هو ان « هم العلماء الاول في عصر المخطوطات كان
الحفاظ على العلم الوضعي المقرر الذى جمعته الاجيال السابقة » (٩) .

كما قال فرانز رونثال Franz Rosental ، ويجوز تعليل ذلك بماقاله الدكتور محمد
كامل حسين : « ان اساتذة الطب لا يرون من واجبهم ان يثوروا على النظريات الطبية
القائمة ، ولان يقدموا للناس نظريات جديدة حتى يصقلها الزمن ويتبين خطؤها او

(٨) نفس المصدر / ص ١٤

(٩) منهج البحث العلمي عند العرب / ص ١٧٧ - ص ١٧٨ / تأليف جلال محمد عبد الحميد / بيروت .

صوابها ، ولذلك كثيرا مما نجد في الكتب الطبية العربية روايات عن الفاضل جالينوس والفاضل أبقراط ، ويكون ذلك مجرد دعم للرأى أو النظرية . وكثيرا ما يترتب على ذلك أن ينسب الى اليونان ما هو عربي أو ينسب الى العرب ما هو يوناني « (١٠) .

لقد تناول الرازى أول وصف سريري للجدرى في رسالته (في الجدرى والحصبة) والوصف في نظرنا أول خطوات المنهج التجريبي . والمنهج التجريبي هو أساس النظريات الصحيحة في نظر العلم الحديث . قال الرازى : « يتقدم ثوران الجدرى حمى مطبقة ووجع الظهر وحكاك الأنف والتفرع من النوم (١١) » .

والرازى أول واضع للتشخيص التفريقي على النهج العلمي . اسمعه يقول في كتابه « الجدرى والحصبة » : « يتقدم ثوران الجدرى حمى مطبقة ووجع الظهر وحكاك الأنف والتفرع من النوم ، وهذه أخص العلامات بكونه لاسيما وجع الظهر مع الحمى ثم النخس الذى يبجده العليل في جميع جسده وامتلاء الوجه واربداه حيناً واشتعال اللون وشدة حمرة الوجنتين واحمرار العينين وثقل الجسد كله وكثرة التملل ، و (من) علاماته التمطي والتثاوب ووجع الحلق والصدر مع شيء من ضيق النفس والسعلة وجفوف الفم وغلظ الريق وبحة الصوت والصداع وثقل الرأس والقلق والضجر والغثي ، غير أن القلق والغثي والكرب في الحصبة أكثر منه في الجدرى ، ووجع الظهر في الجدرى أخص منه بالحصبة ، وسخونة الجسد كله واشتعال لونه وبريقه وحموته وتشد حمرة اللثة خاصة . . . » الى أن يقول « غير أنه لا يكون في الحصبة من وجع الظهر ما يكون مع الجدرى ولا في الجدرى من الكرب والغثي ما يكون مع الحصبة (١٢) » .

فـلا عجب بعد ذلك سرده ان قلت بشأن التشخيص التفريقي
Differential Diagnosis على الاسلوب العلمي من مبتكرات الرازى .

ومن مبتكرات الرازى محاولته في الطب تطبيق معرفته بالكيمياء التي هي للكشف عن الاسرار الطبيعية ، فكان ينسب الشفاء الى التفاعلات الكيماوية التي تحدث في الجسم (١٣) ، وهذه النظرية لا تختلف عن النظرة الحديثة وظيفه الدواء في جسم الانسان العليل .

(١٠) متنوعات / ص ١٣٣ - ص ١٣٤ / تأليف الدكتور مجمد كامل حسين / القاهرة

(١١) انظر كتاب (في الجدرى والحصبة للرازى) ص ١٩ .

(١٢) نفس المصدر (من ص ١٩ - ص ٢٠) .

(١٣) لمحات عن التراث الطبي العربي للدكتور مرسي محمد عرب / ص ٣٠ / الاسكندرية ١٩٧٥م

واهتم الرازي بالتجريب في مقدمة كتابه « الخواص » واليك ما قاله في هذا الخصوص : « فمن المشاهد انه لا يجوز الحكم على مالم يشاهد الاعلى سبيل الاحتمال لا اليقين وليس لأحد أن يدفع ويمنع وجود مالم يشاهد مثله بل انما ينبغي له أن يتوقف عن ذلك حتى يشهد البرهان بوجوده أو عدمه (١٤) » .

واستعمل الرازي الضوابط Controls في تجاربه وان استعماله لها يدلنا على انه عرف التجربة العلمية بمعناها الصحيح ، فلكي يتحقق من أثر الفصد في علاج مرض السرسام ، قسم المرضى الى مجموعتين يعالج أحدهما بالفصد ويمتنع عن فصد الأخرى ، ثم يراقب الأثر والنتيجة في كل أفراد المجموعتين حتى ينتهي عن طريق المقارنة الى قيمة العلاج . واليك ما قاله في هذا الخصوص « فمتى رأيت هذه العلامات فتقدم في الفصد ، فأني قد خلصت جماعة به ، وتركت متعمدا جماعة أستدني بذلك رأيا ، فرسموا كلهم (١٥) » .

واستعمل الرازي الضوابط Controls كذلك في مشاهدات أخرى منها « سافر رجل نبيل في الصيف أياما ، ورجع وبه حمى مطبقة قوية الحرارة جدا . فألزمه بعض الملوك ، فلما لم يكن ذلك ، ورأيت الحرارة والكرب والقلق يتزايد ، سقيته مقدارا عشرة ارطال من الماء الصادق البرد جدا ، فخصر مكانه وانطقا مابه ، ودر بوله . . . وكان له غلام معه في سفره ، أصابه ما أصابه سواء ، فلم يسق في ذلك الوقت الماء البارد شغلا منا بالصاحب نفسه ، فمات في عصر ذلك اليوم وكانت هذه الحادثة صخوة (١٦) » ولا شك في أن هذه حالة ضربة الشمس Sun Stoke .

مما سبق يتضح لنا بأننا نجد عند الرازي ملامح مما وجد مؤخرا عند اصحاب المناهج الحديثة كفرنسيس بيكون (١٦٢٦ م) وجون ستيوارت ميل (١٨٥٧ م) بالمنهج العلمي واثبات لقواعده ، وفي هذا ثورة على مناهج البحث في الطب عند اليونان .

ولم يكن ليكتفي الرازي باجراء التجارب الطبية على المرضى بل أجراها اضافة على ذلك على الحيوان ، وعلى وجه الخصوص على القرودة على اعتبار أنها شبيهة بالانسان . أسمع ما قاله في خواص الزئبق العبيط فلا أحسب أن له كبير مضره اذا

(١٤) المصدر السابق (ص ٥١) .

(١٥) (مجلة المشرق : العدد ٥٦ / ص ٢٣٩) (وانظر الحاوي / ص ٢١٩) .

(١٦) المصدر السابق (من ص ١٠٦ - ص ١٠٧) .

شرب ، أكثر من وجع شديد في البطن والامعاء ويخرج بهيئة لاسيما ان تحرك الانسان . وقد سقيت أنا منه قردا كان عندى فلم أره عرض له الا ما ذكرت وخمنت . ذلك من تلويهِ وقبضهِ بقمهِ ويديه على بطنهِ »
« واما اذا صُبَّ في الاذن منه ، فان منه نكايه شديدة : واما المقتول منه والمساعد خاصة Sublimate فإنه قاتل » . (١٧)

ومن آرائهِ الطبية التي انفرد بها قوله : « لاتحرم على من ليس من عقلاء عقلاء والرجال ولاعلى الملوك والصبيان بترك شيء يشتهوهُ بوحدة ، لكن رجهم ومنهم ذلك ، وأنلهم منه اليسير . ولاتعدهم بالكثير . وتلاحق ضرر ماأتلف ، وهول عليهم في الاستكثار منه . فأنتك تدفعهم بذلك عن أن يأكلوا منه سرا شيئا كثيرا (١٨) » .

وقال الرازى بالوقاية من الأوبئة عند حدوثها اذ أوصى باعتزال الاماكن الموبوءة وباستعمال الأسرة ورش البيوت التي تتخذ للعزل — بالخل وان تبخر باللبان وورق الآسي والسعد ، وأرشد بأن تكون البيوت المتخذة للوقاية من العدوى بعيدة عن مجرى الرياح خوف العدوى وان تكون جافة .

فالرازى أول من قال بأن الاوبئة نتيجة للتعفن الحادث في الدم وانها تنتقل بالهواء والمخالطة . وقد رأينا كيف أن الرازى أمر باستعمال التدخين ورش البيوت بالخل واستعمال الاسرة للنوم مدة الاوبئة من أجل الوقاية .

انه ان كان الطب الحديث يدرك أهمية التجارب الذاتية أو الشخصية فان الرازى قد سبق الى ذلك منذ زمن بعيد . اسمعه في هذا المجال يقول : « جربت في نفسي ورأيت أن أجود ما يكون أن ساعة مايحس الانسان بتزول اللهاة والخوانيق أن يتغرغر بخل حامض قابض مرات كثيرة (٢٠) » .

وهذه تجربة ذاتية اخرى للرازى : « كان لي وجع في الطحال فدمت على أخذ الاطريفل لشيء آخر فأذهب الوجع البتة (٢١) » .

(١٧) رسالة في الرازى / ج٢ / ص ١٠٧ - ص ١٠٨ / من مخطوط MARSH 248

(١٨) كتاب المرشد أو الفصول / لأبي بكر محمد بن زكرياء / الرازى / تحقيق ألبير اسكندر / ص ١٦٥ .

(١٩) نفس المصدر (ص ٢٩) .

(٢٠) الرازى / الحاوى / ج٣ / (ص) ٢٧٩ .

(٢١) الرازى / الحاوى / ج / ص ٢٨٤ . ولفظ اطريفل يدل على المنعجون وهو يعني باللغة بالغة الهندية

الدواء المؤلف من اهليلج وأملج .

وللرازي رأى طريف في خبث بعض الامراض العارضة في الرئة ، قال : « (أن) جميع هؤلاء قذفوا من الرئة أجزاء قد تعفنت فعلمت أنه عرض : في رئاتهم علة شبيهة بالتي تعرض من خارج من العفونة الا ان الرئة لايمكن قطعها وكيها كما يمكن في الاعضاء الخارجية ، فلذلك صار هؤلاء يهلكون (٢٢) » . وفي هذا القول اشارة الى أن قطع الجزء المصاب بالتعفن من الرئة غير ممكن خلاف ما هو عليه الحال في الاعضاء الخارجية اذا أصابتها آفات تعفنها ، وفيه كذلك ما يدل على أصالة الرأي والابتكار الضمني حيث أنه كأنما قال : « لوقفنا الرئة المصابة كما نقطع العضو الخارجي المتعفن لشفيت ، وهنا سبق في التفكير العلمي حيث الطب الحديث يشير باستئصال فص من الرئة المصابة بخراج أو كهف وهو ما يدعى بعملية (قطع الفص) Lobectomy .

ومن مبتكرات الرازي الطب النفساني فهو يشير الى أثر العامل النفسي في صحة المريض وفي احداث الامراض ، اذ يرى ان سوء الهضم قد يكون لاسباب نفسية وذلك في قوله : « قد يكون لسوء الهضم أسباب بخلاف رداءة الكبد والطحال ، منها الهواء والاستحمام ونقصان الشرب وكثرة اخراج الدم ، والجماع والهموم النفسانية » (٢٣) ففي هذه الحالة ينبه على أن من الأمراض الجسمية ما هو نفساني السبب ، ففي سوء الهضم الناتج عن عامل نفسي نرى الاستدلال من الظاهر على الباطن ، وهي ماهية الاستقراء عند جون استيوارت ميل (Mill) (John Stiewart)

ومن أمثلة اتخاذ الرازي العامل النفسي للعلاج قوله : « ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداء الصحة ويرجيه بها وان كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابع لاخلاق النفس (٢٤) » .

وللرازي اشارة الى وجود تعامل بين نهايات الشرايين أى الاوعية الشعرية والرئة لذا ينفذ الهواء من الرئة اليها . قال الرازي حول هذا : « للعروق الضوارب التي في الرئة الى أقسام قضبتها منافذ تنفذ فيها الريح ولا ينفذ منها الدم مادام البدن بحالة الطبيعي ، فأن خرجت هذه المنافذ في حالة غير حالها الطبيعي حتى ينفذ فيها الدم وصل الى اقسام الرئة مستهل دم وكان منه سعال أو نفث (٢٥) » .

(٢٢) الرازي / للحاوى / ج ٤ / ص ٧٤

(٢٣) الرازي / الحاوى / ج ٣ / ص ٦١

(٢٤) ابن أبي أصيبعة / طبقات الاطباء / ج ١ / ص ٣١٤

(٢٥) الرازي / الحاوى / ج ٤ / ص ٨٨ - ص ٧٩

لاشك بأن الرازي كان على علم ومعرفة أولية بالتبادل الغازي الكائن بين العروق الدقاتي (الأوعية الشعرية) وبين الرئة . ومعرفة الرازي هذه لم يسبقه اليها من أحد . وهذا نص من الحاوي للرازي على انه عرف العروق الشعرية قال : « العروق في قصبة الرئة دقاتي مثل الشعر (٢٦) » .

ولأبي بكر رأي في أن النزف الرئوي ربما كان من عامل نفساني حيث ورد في الحاوي قوله : « لا يجب أن لا ينظر صاحب الدم والى الاشياء الحمر لانه يذكره فينفث (٢٧) » .

كما أشار الى وجود علاقة بين نفث الدم والعادة الشهرية للمرأة .

وللرازي رأي سديد يتماشى مع الطب الحديث في سبب خبث القروح العارضة في الرئة ، ذلك بقوله في الحاوي : « القروح العارضة في الرئة خبيثة لانها دائمة الحركة (٢٨) » . ومن هنا برزت فكرة الابرة الهوائية Pneumothorax لايقاف الرئة جزئيا لكي نعينها على الشفاء في حالة اصابتها بتدرن متكهف بتقليل حركتها .

والان لننتقل الى ثائر آخر من الاطباء بعد أن قدمنا هذه اللمحات عن ثورة الرازي ، وطبيبنا هذا هو علي بن العباس المجوسي الاهوازي المدعو في الغرب Halv Abbas المتوفي عام (٩٤٤م) ، وثورته لم تكن على كليات الطب اليوناني وانما كانت على الجزئيات فيها .

عرف علي بن العباس الأوعية الشعرية وعرف التفاعم الكائن بين الاوعية الشعرية الوريدية والاعية الشعرية الشريانية ، واليك ماقاله في هذا الخصوص : « هناك في الاوعية غير النابضة (الاوردة) فتحات صغيرة للاتصال بالأوعية النابضة (الشرايين) والبرهان على هذا الاتصال نجد أن قطع شريان يخرج الدم كله حتى الذي في الاوردة (٢٩) . ومن هنا يمكننا القول بأن هذا تفهم منه للاوعية وللدورة الدموية الشعرية الكائنة بين الشرايين والاوردة ، لقد سبق علي بن العباس هارفي في وصفه للدورة الدموية في

(٢٦) الرازي / الحاوي / ج٤ / ص ٨٢

(٢٧) الرازي / الحاوي / ج٤ / ص ٦٢

(٢٨) الرازي / الحاوي / ج٤ / ص ٨٧

(٢٩) براون / الطب العربي / الترجمة العربية طبقة بغداد (ص ١١٦ - ص ١١٧) ، وكامل الصناعة

لعلي ابن عباس المجوسي / ج١ ص ١٣٩

الادوية الشعرية ، وأتى بما لم يسبقه اليه أحد من الاطباء .

والاهوازي (علي بن العباس) أول من قال بأن انقباض الرحم هو سبب الطلق (٣٠) وخروج الجنين ، بخلاف ما كان قد نشره اطباء اليونان في هذا الخصوص من ان خروج الجنين من رحم أمه يتم بحركة ذاتية فيه (أى في الجنين) ، وهذا الكشف له أهميته في عالم الطب الولادى .

ولعلي بن العباس ، في استعمال الادوية المانعة للخليل ، هذا رأى الطريف : « يجب أن لاتعطى الادوية المانعة للحمل إلا لمن كانت صغيرة الرحم أو بها علة يخاف عليها متى حصلت ان تهلك عند الولادة (٣١) » .

لاشك انه رغم بعد صيت الرازي وعبقريته ، وبراعة المجوسي وعلمه . فإن العملاق الذى سيطر على عقول الناس وعلى الفكر الطبى في البلاد العربية وفي الغرب على السواء ، قرونا طويلة حتى القرن السادس عشر هو أبو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا (٩٨٠ م - ١٠٣٧ م) .

لقد سار ابن سينا رغم سيطرته على الافكار والمناهج الطبية قرونا عديدة سار على نهج ابقراط وجالينوس في طبه النظرى . وقد خالفهما في اسناده الى الشبكية دورا أكبر في عملية الابصار من العدسة (٣٢) .

ولابن سينا رأى مبتكر في العقم لم يسبقه اليه من أحد فقد قال : « لوبدل كل مصاحبة لبطل العقم وكان الولد (٣٣) » ، وهذا ما ندعوه بلغتنا اليوم حالة عدم التوافق الخلطي ، وينجم عنها أن لا يستطيع الحيوان المنوى البقاء حيا في أنحلاط المرأة ، فاذا قدر للزوجين أن يفترقا بدا كل منهما مخصبا ، وبالحق انها لمعلومات فسيولوجية جيدة وجديدة في آن معا .

ولابن سينا معلومات قيمة في باب التشخيص التفريقي بين الصرع والهستيريا اذ بين أن بينهما تشابها في كثير من الاحكام ، ولكن تمييز المرض الاول عن الثاني يكون

(٣٠) أمين خير الله / الطب العربى / مطبعة لبنان / ص ص ١٧٤

(٣١) كامل الصناعة للمجوسى / ج / ٢ ص ٤٨٩

(٣٢) ابن النفيس تأليف بول غليموجي / طبعة الكويت / ص ١٠٢

(٣٣) احمد شوكت الشطلي / تأريخ الطب وآدابه واعلامه / ص ٢٥٠

بالاستناد الى أمور منها - ان الصرع يفقد العقل اثناء النوبة وأما الهوس (Hysteria) فلا يفقده وان المهسترة اذا قامت حدثت بأكثر ما كان بها ، وان الزبد لا يسيل من المهوسة (المهسترة) سيلانه في المصروعة ، كما ميز المهوسة عن المصابة بالسكتة بقوله : « ان الحس لا يبطل في الاولى بطلانا تاما ، ولا يكون فيها غطيظ (٣٤) » .

ووصف ابن سينا احتقان الدماغ وهو أول من أشار الى معالجته بما يشبه كيس الجليد (٣٥) .

وقسم (ابو علي) اليرقان الى هضمي وانحلالي وصفراوى (٣٦) .

لقد أشار ابن سينا في كتبه بوضوح الى عدوى السل ، والى انتقال الامراض بالماء والتراب ، ووصف الداء الخيطي Filarios بشكل لم يسبق اليه وذكر انتشار الدودة الخيطية في الجسم وذكر أعراضها وتعرض الى الديدان المعوية وبين عوارضها (٣٧) .

وابن سينا أول من وصف الجمرة الخبيثة Anthra التي رعاها بالنار الفارسية .

وبين أبو علي أنه ليس هناك امراض أساسية لاسبب لها .

لقد فرق ابن سينا بين اللقوة (شلل الوجه Facial Paralysis الناتجة عن سبب مركزي في الدماغ عن تلك التي من سبب موضعي (٣٩) في الوجه وميز الآم الوريدية عن الآم ذات الجنب و فرق بين ذات الجنب Pleurisy والتهاب الكبد Hepatitis . وقد قال ترنوفسكي عضو الاكاديمية السوفيتية في هذا الخصوص : ان العلامات الخاصة بالتهاب الجنب التي بينها ابن سينا لازالت ذات شأن في تشخيص هذا المرض في زمننا الحاضر (٤٠) .

وقال ابن سينا ان من الأمراض ما يحدث بالعدوى ، واليك ما قاله في هذا الخصوص

(٣٤) احمد شوكت الشطي / تاريخ الطب وآدابه واعلامه / ص ٢٥٠١ / طبقة دمشق .

(٣٥) نفس المصدر / ص ٢٥٠ .

(٣٦) نفس المصدر / ص ٢٥٠ .

(٣٧) نفس المصدر / ص ٢٤٩ .

(٣٨) نفس المصدر / ص ٢٤٩ .

(٣٩) نفس المصدر / ص ٢٤٩ .

(٤٠) نفس المصدر / ص ٢٤٩ و ص ٢٥٠ .

في قانونه : « ومن الامراض أمراض معدية مثل الجذام والجوب والجدرى والحصى
الوبائية والقروح العفنة وخصوصا اذا ضاقت المساكن ، وكذلك اذا كان المجاور أسفل
الريح ومثل الرمد (٤١) » .

ويطيب لي الان ان اذكر قواعد التجربة عند ابن سينا التي سبق فيها قواعد (جون
ستيوارت ميل) المنطقية لتحقيق الفروض ، وقواعد التجربة عند (بيكون) واليك قواعد
ابن سينا في تحقيق أثر مادة دوائية : —

- ١ — أن يكون الدواء خاليا من كيفية مكتسبة (أى ان تكون المادة نقية) .
- ٢ — أن يكون المجرب عليه مصابا بمرض واحد ، فيمكن حينئذ مراقبة الأثر في
مرض بعينه .
- ٣ — ان يكون الدواء قد جرب على علل متضادة ، وهو يشبه شرط يكون في قراء
بقلب التجربة .
- ٤ — ان تكون قدرة الدواء تقابل مايساويها من قوة العلة (هنا يدخل في الاعتبار السن
والجنس) .
- ٥ — مراعاة الزمان والمكان الذى يظهر فيه تأثير الدواء . وهذا يمثل الحالة التجريبية
عند بيكون .
- ٦ — مراعاة فعل الدواء على الدوام اى اعادة التجربة لتصحح المشاهدة .
- ٧ — ان تكون التجربة على بدن الانسان اذ الدواء ان جرب على حيوان جاز ان
يختلف تأثيره (٤٢) .

اما قواعد (ستيوارت ميل) المنطقية فهي : —

- ١ — طريقة الاتفاق :
اذا اتفقت حالتان او اكثر للظاهرة المراد بحثها في ظرف واحد فهذا الظرف هو السبب
في هذه الظاهرة . (وهذا يتفق مع الشرط السادس من شروط ابن سينا) .
- ٢ — طريقة الاختلاف :
وهي عكس السابقة ففيها المقارنة بين حالتين متشابهتين في جميع الظروف عدا ظرف

(٤١) ابن سينا / القانون / ج ١ / ص ٧٩ .

(٤٢) انظر الدكتور مرسي محمد عرب / لمحات عن التراث الطبي العربي / ص ٥٢ — ص ٥٣ .

واحد ، حيث توجد الظاهرة في إحداها ولا توجد في الأخرى (وهذا يتفق مع القاعدة الثانية عند ابن سينا) .

٣ - طريقة التغيير النسبي :

وهي ملاحظة الاختلاف الذى يطرأ على أحدهما اذا حدث الاختلاف في الأخرى (٤٣) . (وهذا يتفق مع القاعدة الثالثة عند ابن سينا) .

وهكذا نجد أن المنهج العلمي كانت قواعده معروفة عند ابن سينا ومطبقة وقد سبق فيه ليكون وستوارت ميل .

لقد كان ابن سينا يعرض كليات اليونان الطبية في (قانونه) بقوة وثقة مستمدة من الفلسفة ، اما الجزئيات التي لاتمس المبادئ الفلسفية فقولها فيها علمي خالص لا ينضوى تحت نظريات اليونان دائما .

مهما يكن من أمر فان المقارنة بين كليات ابن سينا في الطب وطابعها الفلسفي اليوناني وجزئياته ذات الطابع العلمي ، أقول ان هذه المقارنة من البحوث الممتعة في كتاب (القانون) ، ولعل دراسة القانون عند الباحث الحديث من الناحية الفلسفية هي أمتع من دراسته إياه من وجهة النظر الطبية .

ولانتقل الى طبيب آخر بل الى طبيبين من اعلام التراث ينضوى كشفهما الطبي تحت عنوان (مقدمة الثورة على الطب اليوناني أوبالاصح على كلياته) .

قرأت في كتاب (المقدمة في تاريخ العلم) ، تأليف الدكتور جورج سارطون مايلى : « لاشك عندنا في ان ابن زهر الطبيب الاندلسي اول من اكتشف حلمه الجرب Acarus Scabiei وكان اعظم عالم بالطفيليات Parasitologist بعد Alexander of Tiralle (النصف الثاني من القرن السادس) .

وقد اعتمد في هذا الكشف على مقاله احمد الطبرى (النصف الثاني من القرن العاشر) في كتابه « المداواة الابقراطية » الذى بقبت له بعض الخلاصات وقد ترجمت الى الالمانية من قبل (محمود رحاب) .

(٤٣) مرسى محمد عرب / لمحات عن التراث الطبي العربي / ص - ٥٣ - ص ٥٤ .

ولد ابن زهر في اشبيلية عام (١١١٠ م - ١١١١ م) أو (١١١٣ - ١١١٤ م) وتوفي مسموما في مراكش عام (١١٩٩ م) واهم كتبه (التيسير في المداواة والتدبير) وهو استاذ ابن رشد في الطب (٤٤) الفيلسوف المشهور .

والان بعد ان انتهينا من حديثنا عن حلم الجرب وكيف كشفه اطباء العرب العرب أرى ان الانتقال من دور مقدمة الثورة على كليات الطب الى دورة الثورة على تلك الكليات من الضرورة بمكان .

ب - دور الثورة على كليات الطب اليوناني :

في دور مقدمة الثورة على كليات الطب اليوناني وقفنا على أكثر من ثورة في الطب العربي على تلك الكليات واهمها في نظري ، نظرية الرازي في كيف تحدث الإصابة بالجدرى ، ورغم أهمية هذا الكشف الذى تكلمنا عنه مافيه الكفاية فإن الرازي لم يخرج على كليات اليونان المتمثل بالاخلاط ومايتعلق بها في ابحاثه النظرية .

والان سوف أحدثكم عن اطباء ثاروا بنظرياتهم على الطب اليوناني وكلياته وأعلنوا الثورة ، ولاعجب في هذه الثورة ذلك لانه عندما تكتمل اسباب النضج تحدث الطفرة أو الثورة . وسوف احصر حديثي في اربعة من اطباء الثائرين هم : - ابن الهيثم وعبد اللطيف البغدادى وابن النفيس وابن الخطيب الاندلسي .

مهما يكن من امر فان باكورة حديثي عن الثائرين من الاطباء العرب على كليات اليونان الطبية سوف تكون عن « ابن الهيثم » .

١ - ابن الهيثم :

هو ابو علي محمد بن الحسن بن الهيثم ، أحد العلماء الاعلام في القرن الخامس الهجرى ، ولد في البصرة نحو نحو عام (٣٥٤ هـ - ٩٦٥) ، وتعلم ثم انتقل الى الديار المصرية خلال حكم الحاكم بأمر الله الفاطمي ما بين عام (٩٩٦ م - ١٠٢٠ م) ، وتوفي بالقاهرة عام (٤٣٠ هـ - ١٠٣٩) ، وقد حرق الغربيون اسمه فجعلوه « الهازن » Alhazen مما أدى الى وقوع التباس كبير بينه وبين الخازن الفلكي المشهور بأبي

(٤٤) Introduction to the History of Science. Voi II. P233. (George Sarton) .

جعفر (٤٥) .

صنف ابن الهيثم ما يقرب من مائتي رسالة وكتاب في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والفلسفة والطب ، وبقيت هذه الكتب المصدر الرئيسي لعلماء الغرب كبيكون وكبلر وفترزي وفيتلو وغيرهم كما أثارت أبحاثه في الضوء والبصريات المستشرق الألماني مايرهوف الى درجة اعتبار أن عظمة الابتكار الاسلامي تتجلى في علم الضوء والبصريات (٤٦) .

ولعل من اعظم مآثر ابن الهيثم في علم الضوء ابطاله للنظرية القديمة التي كانت شائعة منذ عهد اليونان الى عصر ابن الهيثم نفسه وهي ان الابصار يكون بشعاع يخرج من البصر الى المبصر ، وكيفية ذلك أن يخرج من العين شعاع على شكل مخروط رأسه عند العين وقاعدته عند سطح المبصر ، فاذا ماخرج هذا الشعاع من العين ووقع على المبصر فلمسه حدث الابصار ، فكأن العين وهي العضو الحاس تمتمد حتى تلمس المبصر (٤٧) .

قلنا بأن من مآثر ابن الهيثم العظيمة ابطاله لنظرية اليونان القديمة في كيفية حدوث الابصار ، وذلك بقوله بان الابصار يتم بدخول النور الى العين وأن شبكية العين هي مركز المرئيات وان الاحساس بهذه المرئيات يتم في الدماغ بواسطة عصب البصر وان وحدة النظر من الباصرتين عائد الى تماثل الصور على الشبكتين (٤٨) .

فبناء على ما بيناه من دحض ابن الهيثم لنظريات اليونان في كيفية حدوث الابصار وذلك بالاستنتاد على مقاله في كتابه « المناظر » ، يحق لنا القول بان ابن الهيثم في طليعة الثائرين على كليات اليونان الطبية .

والآن لننتقل بالحديث عن ثائر آخر على كليات اليونان الطبية هو : -

٢ - عبداللطيف البغدادى

وصاحبنا عبد اللطيف هو ابن يوسف يوسف بن محمد بن علي الموصللي ، ثم

(٤٥) الدكتور احمد شوكت الشطي / تاريخ الطب وآدابه واعلامه / ص ٢٦٢ / طبقة طربين بدمشق عام ١٣٨٦ هـ . ١٩٦٧ م .

(٤٦) The Legacy of Isidore / Oxford (1931) P334

وانظر ابن أبي اصيبعة / طبقات الاطباء / ص ٥٥٣ - ص ٥٦٠ .

(٤٧) مصطفى نظيف / كتاب الحسن بن الهيثم بحوثه وكشفه البصرية / ج ١ / ص ٥٥

(٤٨) الدكتور امين اسعد خير الله / الطب العربي / ص ١٨٠ / المطبعة الاميركية في بيروت ١٩٤٦ م .

البغدادى ، الشافعي ويعرف بابن اللباد (موفق الدين ابو محمد) ، طبيب رياضي ، أديب ، نحوي ، لغوي ، متكلم ، محدث ، مؤرخ ، حكيم ، مشارك في غير ذلك من العلوم ، ولد ببغداد في احد الربيعين « عام ٥٥٧ هـ - ١١٦٢ م » وتوفي فيها في الثاني عشر من محرم سنة ستمائة وتسع وعشرين هجرية (٦٢٩ هـ - ١٢٣١ م) ، ودفن في الوردية عند أبيه وذلك بعد أن خرج من بغداد وبقي غائبا عنها خمسة واربعين (٤٩) سنة .

لقد ثار عبد اللطيف على الطب اليوناني وکلياته ، حيث جاء في كتابه الافادة والاعتبار : « والحس أقوى دليلا من السمع ، فأن جالينوس وان كان في الدرجة الاولى من التجري والتحفظ فيما يباشره ويحكىه فان الحس أصدق منه فمن ذلك عظم الفك الاسفل ، فان الكل قد اجمعوا على انه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك ، وقولنا الكل انما نعني به ههنا جالينوس وحده فانه باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه ، وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقي لم يخرج الى لسان العرب والذي شاهدناه من حال هذا العضو انه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا درز اصلا . واعتبرناه ما شاء الله من المرات في اشخاص كثيرة تزيد على ألفي جمجمة باصناف من الاعتبارات ، فلم نجده الا عظما واحدا من كل ما شاهدناه منه وحكيانه ، وكذلك في اشياء آخر غير هذه . ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي فيها ماشاهدناه وما علمناه من كتب جالينوس ، ثم اني اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوسير القديمة المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت ، ليس فيه مفصل ولا درز ، ومن شأن الدروز الخنية والمفاصل الوثيقة اذا تقاوم عليها الزمن ان تظهر وتنفق ، وهذا الفك الاسفل لا يوجد في جميع احواله الاقطعة واحدة « ٥٠ » .

فعبد اللطيف البغدادى قد ثار على ما قاله جالينوس من ان الفك الاسفل يتكون من قطعتين واثبت علميا بما لا يقبل الشك انه قطعة واحدة فقط .

والآن لننتقل الى ثائر آخر ثار على كليات الطب اليوناني فنخصه بالحديث هو : —

٣ — ابن النفيس :

وصاحبنا هو علاء الدين بن أبي الحزم القرشي المتطبب — القرشي بفتحيتين قرية قرب

(٤٩) ابن ابي اصيبعة / طبقات الأطباء / ج٢ / ص (٢٠١ - ٢١٣) وكنوز الاجداد لمحمد كرد علي ص

(٣٢٥ - ٣٣١) وانظر : اعلام للزرکلي / ج٤ / ص (١٨٣ - ١٨٤) .

(٥٠) عبد اللطيف البغدادى / الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث لمعينة بارض مصر / ص ٦١ —

ص ٦٢ / الكتاب جزء واحد واحد طبع بمطبعة وادى النيل بالقاهرة عام (١٢٨٦هـ) .

الشام - ، فإنه كان شيخا فاضلا في العلوم ، ولم يكن منفردا بفن من الفنون ، ولو لم يكن له غير شرح غوامض القانون تكفي به دليلا على غزارة فضله ، وله من المصنفات القيمة موجز القانون وكتاب الشامل ، وله أيضا شرح الفصول لابن قراط - ، وثمار المسائل وكتاب النبات في الأدوية المفردة وكتاب المواليذ الثلاثة وكتاب جامع الدقائق في الطب وكتاب الشافي ورسالة في أوجاع الاطفال (٥١) وغيرها .

ولد ابن النفيس حوالي عام (٦٠٧ هـ - ١٢١٠ م) بدمشق وتوفي عام (٦٨٧ هـ - ١٢٨٨ م) (٥٢) .

مهما يكن من امر فصاحبنا ابن النفيس من أشهر الثائرين على كليات اليونان الطبية - من بين أطباء العرب - وذلك بكشفه الدورة الدموية الصغرى حيث كان الاعتقاد السائد بين الأطباء قبل ابن النفيس ان الدم انما يتولد في الكبد ، ومنه ينتقل الى البطين الايمن ثم يسرى في العروق الى اعضاء البدن فيغذيها ، وان - بعضه يدخل البطين الايسر عن طريق مسام في الحجاب (وهذه هي نظرية جالينوس أيده فيها ابن سينا) فيمتزج بالهواء الذي يأتي من الرئتين . وعرف هذا المزيج « بالروح الحيواني » الذي يسرى في الشرايين الى مختلف اعضاء البدن .

ظهر ابن النفيس طبيا عالما في القاهرة بعد ان غادر دمشق حيث نشأ وترعرع وقد عارض نظرية جالينوس المؤيدة من بعده بابن سينا كما قلنا وانتقدها بشدة حين أدرك ان تنقية الدم تتم في الرئتين ، فالدم ينساب من البطين الايمن الى الرئة ليمتزج بالهواء فينقى ، ثم ينتقل الى البطين الايسر ، وهكذا يكون ابن النفيس أول من كشف الدورة الدموية الصغرى حيث سبق هارفي الانكليزي (١٦٢٨ م) وسبق سرفيتوس الاسباني (ولد عام ١٥١١ م - وتوفي بالحرق عام ١٥٥٣) أقول سبقه بثلاثة قرون .

لقد دحض ابن النفيس قول ابن سينا وخالف جالينوس ، دحض قول ابن سينا بأن للقلب ثلاثة بطينات ، وخالف جالينوس وكذلك ابن سينا في قولهما بأن البطينين البطينين نفوذ حيث قال ابن النفيس بأن الحجاب بين البطينين سميك واليك قوله بالنص : « كلام لا يصح فإن القلب له بطينان فقط احدهما مملوء من الدم وهو الايمن والاخر مملوء

(٥١) الدكتور بول غليموجي - كتاب (ابن النفيس) طبعة الكويت - ص ١١٤ - ص ١١٥

(٥٢) المصدر السابق ص ١١٨ .

من الروح وهو الأيسر ولا منفذ بين هذين البطينين بته والا كان الدم ينفذ الى موضع الروح ويفسد جوهرها والتشريح يكذب ما قالوه .

وابن النفيس أول قائل بأن القلب يغتذى من الاوعية التاجية حيث قال : « وجعله - ويعني ابن سينا - الدم في البطين منه يغتذى القلب لا يصح البتة فأن غذاء القلب من الدم المنبعث فيه من العروق المنبعثة في جرمه (٥٣) » .

٤ - ابن الخطيب الاندلسي :

هو لسان الدين بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله بن سعيد الملقب بالخطيب ولد في لوشة Loga على مرحلة من غرب غرناطة عام (٧١٣ هـ - ١٣١٣ م) وانتقل الى غرناطة مع ابيه وبها درس وتأدب وبعد ان تولى الوزارة تقلبت به الاحوال فسجن وقتل خنقا في سجنه أواخر سنة (٧٧٦ هـ - ١٣٧٥ م) .

تدل آثار ابن الخطيب على ما كان عليه من ثقافة شاملة ، فقد تناول فيها الادب والتاريخ والجغرافية والرحلات والدين والشريعة والتصوف والاخلاق والسياسة والفنون الحربية والطب والموسيقى والنبات وكان الى ذلك كاتباً مجيداً وشاعراً محسناً (٥٤) ومن اصحاب الموشحات المشهورة ، وسبق ان ذكرنا ان ابن سينا قال بالعدوى ولكننا نجد تفاصيل القول في العدوى عند ابن الخطيب اوفى وأوضح ، وذلك في رسالة له عن الطاعون (الموت الاسود) الذي انتشر في الاندلس في القرن الرابع عشر .

قال ابن الخطيب : « ان وجود العدوى مقرر ثابت بالخبرة والدراسة وشهادة الحواس ، وبالاخبار المعتمدة عن انتقالها بالثياب والأوعية والاقراط وبانتشارها بواسطة اشخاص من منزل واحد ، واصابة مرفأ سليم ممن يصلون اليه من بلاد موبوءة . . ومن حصانة الافراد المنعزلين عن الناس وقائل البدو الرحل في افريقية » (٥٥)

هذا وان كلام ابن الخطيب عن العدوى ، أكمله بهذا القول : « ان دليلاً مستمداً من الاحاديث ينبغي أن يؤول ، متى كان على تناقض واضح وشواهد مدركات

(٥٣) (أمين خير الله / الطب العربي / ص ١٦٦ /) و (مرسي محمد عرب / لمحات عن التراث الطبي

العربي / ص ٥٦ - ص ٥٧) و (ابن النفيس / بول اغليموجي طبعة الكويت / ص ١٦٣ - ص ١٧٠)

(٥٤) دائرة المعارف لفؤاد البستاني / ج ٣ / ص ١١ / وما بعدها .

الحواس (٥٦)» .

مهما يكن فإن حديث ابن الخطيب عن العدوى واضح وجلي ، ويقودنا الى أمرين ، أحدهما ظاهر وثانيهما مضمّر . أما الظاهر فهو البت بأن أولهما ان العرب لهم فضل السبق في القول بالعدوى وان الطاعون من الامراض المعدية بشكل قاطع لا يقبل الجدل ، .

واما الامر الثاني المضمّر فهو الذى نستشقه ونستنتجه من كلام ابن الخطيب واعني به الاسلوب العلمي الذى تبناه في الحكم بأن الطاعون ينتقل بالعدوى فقد استخدم المشاهدة والتجربة والضوابط Controles في هذا السبيل . وبعد — فإن الذين يزدرون العلم العربي يجهلون هذا الانتاج جهلا منكرا وماكان الجاهل في شيء ان يحكم على ذلك الشيء .

فالعقل البشرى اذا كان قد انتقل من الحالة اللاهوتية الى الحالة الغيبية ومن الحالة الغيبية التي الحالة الوضعية كما يقول (اوغيست كومت) فإن الذين ينقضون من قيمة العلم العربي يزعمون انه قد وقف عند الحالة اللاهوتية او الحالة الغيبية ، ولم يبلغ الحالة الوضعية التي هي ميزة العلم الحديث بعد ، وفي هذا القول ميل عن الحق وتنكب عن الحقيقة ، حيث كان علم العرب في العصر الوسيط يمثل التفكير العلمي الذى تمثله الحضارة المعاصرة .

والبيكونية التي تتخذ العلم وسيلة للسيطرة على الطبيعة هي للعرب وبيكون اقتضى أثرهم : فالعرب وضعوا قاعدة (جرب واحكم) ، فطبهم تجريبي كما علمنا ، وكيمياؤهم عملية ، ومن تجاربهم الدقيقة ومشاهداتهم العلمية في الطب والعلوم الاخرى تهيأت اسباب العلم الحديث .

ان قيمة الشعوب تقاس بمقدار ما استنبطوا من حقائق ، وبموقفهم تجاه الحقيقة ايضا ، فالعلوم التي كانت محصورة بين دفتات الدفاتر وفي افكار فئة [محدودة من الناس كأنها أحجار ثمينة لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها عند اليونان والرومان —

(٥٥) و (٥٦) جوستاف هرونياوم / حضارة الاسلام / سلسلة الالف كتاب ص ٤٢٦ - ص ٤٢٧

وانظر : Legacy of Islam/P340

أصبحت عند العرب غذاء للأفكار كافة ، وصحة للأجساد والنفوس عامة ، فعلم العرب ومعرفتهم كانا للناس أجمعين ومن نتاج عتوهم وأيديهم أجمعين ثم أصبحا مهمازا للقوى البشرية يسوقها الى إكمالها الذي أعدت له .